الامام البخـــارى

ومدرسة الحديث

للدكتور محمد خلف الله أحمد

عميد كلية الآداب بجامعة الاسكندرية

فى صيف عام ١٩٤٨ انعقد المؤتمر الدولى الحادى والعشرون للمستشرقين بمدينة ، باريس ، وحضرته فيمن حضره من الأساتذة المصريين لتمثيل مصر وجامعاتها فى المؤتمر .

وكان من البحوث التى استمعنا لها هناك بحث ألقاه عالم مستشرق ممن يهتمون بالدراسات الإسلامية ، موضوعه « نظرة جديدة فى تقدير الحديث والسنة النبوية » ، وفكرته الأساسية أن العلماء المسلمين السابقين الذين عنوا بجمع الحديث وروايته قد أهملوا دراسة المجتمع الإسلامى الأول ، وما خضع له من العوامل التى أدت إلى وضع الأحاديث والكذب فى روايتها ، ولهذا جاء عملهم غير دقيق ، ووجب على الباحث الحديث أن يعيد دراسة الموضوع ، ويتخذ للصحة وعدمها مقاييس جديدة . وقد انبرى له إذ ذاك طائفة من الأساتذة المصريين الحاضرين فبينوا له خطأ فكرته ، وعدم انصافه للمجهود العلمى الضخم الذى قام به علماء الحديث من المسلمين وعلى الأخص فى القرن الثالث الهجرى وهو القرن الذى عاش فيه الشيخان البخارى ومسلم ، وبقية مؤلفى الكتب الستة .

إن المؤرخ المنصف لايسعه إلا الإعجاب بجهود أولئك العلماء الذين اختطوا لأنفسهم فى ذلك الزمن القديم منهجا علميا فى جمع الحديث وروايته فراضوا أنفسهم على مشاق الأسفار طلبا للحديث ، وتوفروا السنين الطوال على التحقيق التاريخى ، ووضعوا أمامهم مقاييس جديرة بالاعتبار ساروا عليها فى تقدير رواة الأحاديث .

والحق أنهم بذلك قدموا الإسلام وللمسلوم الإسلامية يدا مشكورة وحفظوا للمسلمين المصدر الثانى الرئيسى من مصادر التشريع بعد كتاب الله .

كان المسلمون فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمعون لكل ماينطق به بقلوب واعية وآذان صاغية، ويلتزمون الدقة والحيطة فى رواية أحاديثه فى مناسباتها الضرورية ، ويأخذون بتلابيب من لم يطمئنوا لحفظه ، ولم يعرف عنه ـ صلوات الله عليه ـ أنه شجع أصحابه على كتابة حديثه ، بل ورد فى بعض الأحاديث أنه نهاهم أن يكتبوا عنه غير القرآن . فلما أختاره الله لجواره ، واتسعت رقعة الإسلام ، وكثر النقل والرواية ، وتعددت الأحزاب السياسية والمذهبية، شعر السلف الصالحون أن الوضع قد تسرب إلى الأحاديث النبوية ، وأن الموقف قد أصبح يدعو إلى مزيد من العناية فى التثبت من صحة ما يروى ، وتعرف أحوال رواته ـ أو رجال إسناده ـ من الصدق والضبط ، بل لم يلبث أهل الغيرة على مصادر الدين أن شعروا بضرورة جمع السنة فى كتاب، وكان من أظهر من دعا إلى هذا عمر ابن عبد العزيز ثم أبو جعفر المنصور.

وقد نفذت الفكرة فى القرن الثانى الهجرى فى نطاق محلى على يد جماعة من العلماء أشهرهم الإمام مالك بن أنس صاحب « الموطأ » .

فلما جاء القرن الثالث الهجرى خطت هذه الحركة خطوات أوسع وأعمق أثراً ، فألفت مجموعات الكتب التى اشتهرت بالكتب الستة ، والتى كانت ولا تزال عماد الدارسين للحديث والسنة . وخير هذه المجموعات وأدقها اثنان عرفا بالصحيحين ، وإنى مقدم إليكم جامع أحد الصحيحين ومن أقر له الجمهور بالسبق والفضل ، ومن جمع فى صحيحه أكثر من سبعة آلاف من صحاح الحديث ، ومن طوف فى البلاد الإسلامية ستة عشر عاما فى سبيل هذه المهمة وهو الإمام البخارى .

ولد أبو عبد الله محمد بن إسماعيل فى بخارى من إقليم خراسان سنة ١٩٤ هـ . فى أيام النزاع بين المأمون والأمين ، وتوفى فى سنة ٢٥٦ هـ . وكان أبوه رجل علم ، وورع ، وقد توفى الأب والطفل صغير . فنشأ يتيما فى حجر والدته ، ولكن الله وهبه من صغره موهبتى الحفظ وقوة الفهم ، ووجهه إلى استعمال هاتين الموهبتين فى العناية بحديث رسول الله ، وقد وصف هو

مراحل جهاده فى هذه الناحية : فذكر أنه ألهم حفظ الحديث فى المكتب ، وله عشر سنين أو أقل ، ثم خرج من المكتب فجعل يختلف إلى علماء الحديث ، ولم يلبث أن تكشفت لهم من حدة ذهنه وقوة حفظه عجائب وآيات ، وما بلغ السادسة عشرة حتى كان قد حفظ كثيراً من كتب السابقين ثم خرج إلى مكة مع أهله حاجا ، وأقام يطلب الحديث فيها وفى المدينة على كبار المحدثين . وصنف كتابه التاريخ الكبير - وهو ابن ثمان عشرة سنة - عند قبر النبى صلى الله عليه وسلم فى الليالى المقمرة ، كما يقول .

وبعد أن رجع من مكة ارتحل إلى سائر مشايخ الحديث فى البلدان التى أمكنته الرحلة إليها . فزار معظم مراكز العلم فى مصر والشام والعراق وأقاليم فارس . وما برح يدأب ويجتهد ، حتى صار - كما يقول شارحه القسطلانى المصرى - « أنظر أهل زمانه ، وفارس ميدانه ، والمقدم على أقرانه ، وامتدت إليه الأعين ، وانتشر صيته فى البلدان ، ورحل إليه من كل مكان » .

وتروى تراجمه فى هذا روايات ، تبدو فيها أحياناً المبالغة ، ولكنها من الكثرة وتعدد المصادر بحيث يقوى بعضها بعضا : فقد بلغ من سرعة حفظه - كما يقولون - أنه كان ينظر فى الكتاب نظرة واحدة فيحفظ مافيه ، وسمع بعضهم بعجائب أخباره ، فخرج فى طلبه ، فلقيه فقال له : أنت الذى تقول : أنا أحفظ سبعين ألف حديث! فأجابه البخارى الشاب : نعم وأكثر ، ولا أجيبك بحديث عن الصحابة والتابعين إلا من عرفت مولد أكثرهم ووفاتهم ومساكنهم ، ولست أروى حديثا من حديث الصحابة والتابعين إلا ولى فى ذلك أصل أحفظه حفظا عن كتاب الله وسنة رسوله . ويظهر أن شيوع هذه الأخبار عنه أثار فضول الأقران وأغراهم بتعجيزه ومحاولة ايقاعه فى الخطأ : ذكروا أنه قدم بغداد فاجتمع أصحاب الحديث ، وعمدوا إلى مائة حديث فقلبوا متونها وأسانيدها ، ودفعوا إلى كل واحد عشرة أحاديث ليلقوها على البخارى فى المجلس امتحاناً . فلما اجتمع الناس واطمأن المجلس بأهله قام أحدهم فسأله عن حديث من تلك العشرة : فقال البخارى له أعرفه : فسأله عن آخر فقال له : أعرفه وهكذا حتى فرغ من العشرة ، فكان الفقهاء يلتفت بعضهم إلى بعض ويقولون أنه فهم ، وكان من لا يدرى يظن به العجز

وعدم الفهم . ثم قام الثانى والثالث . . إلى آخر العشرة . فلما فرغوا التفت هو إلى الأول فقال : أما حديثك الأول فقلت كذا وصوابه كذا ، وحديثك الثانى كذا وصوابه كذا ، حتى أتى على تمام العشرة ، فرد كل متن إلى اسناده ، وكل اسناد إلى متنه . وفعل بالآخرين مثل ذلك ، فأقر الناس له بالحفظ وأذعنوا له بالفضل . وأثر عن بعضهم أنه قال : جالست الفقهاء والعباد والزهاد ، فما رأيت منذ عقلت مثل محمد بن إسماعيل ، وهو فى زمانه كعمر فى الصحابة ، وقال آخر : رأيت العلماء بالحرمين والحجاز والشام والعراق فما رأيت فيهم أجمع من محمد بن إسماعيل ، وروى ثالث أنه سمع أكثر من ثلاثين عالماً من علماء مصر يقولون : حاجتنا فى الدنيا النظر إلى محمد بن إسماعيل . وكتب إليه أهل بغداد كتابا جاء فيه : المسلمون بخير ما بقيت لهم

وليس بعدك خير حين تفتقد

كان هذا الرجل - إذن - نابغة فى مواهبه العقلية ، وكان مثلا من أمثلة الصبر والدأب فى طلب العلم والانقطاع إليه . ولكن هناك جوانب أخرى من عظمته ، لا تقل عن هاتين جلالا ، ضمنت له الخلود على صفحة الزمن : ذلك أنه سلك فى جمع الحديث مسلك التحقيق العلمى التاريخى : فوجه عنايته إلى دراسة أحوال الرواة وصفاتهم ، منذ عهد الرسول إلى أيامه ويبدو أنه قصر اختياره من بين مئات الألوف من الأحاديث التى جمعها على الأحاديث التى يتوفر فى رواتها مع الإسلام الصدق والضبط والثقة والعدالة ، وسلامة الذهن والاعتقاد ، والخلو من الوهم والاختلاط . وقد رتب هذه الأحاديث الكثيرة التى جمعها فى الجامع الصحيح فى كتب تشتمل أبوابا فى الإيمان والعلم والعبادات والمعاملات والحدود والسيرة والجهاد والتفسير وأدب الاجتماع . وكان إلى جانب مواهبه وسلامة منهجه العلمى نموذجا من نماذج الإسلام فى الحياء والشجاعة والورع والزهد . ومع أن عمله العلمى كان يقتضيه الخوض فى صفات الرواة وفى التجريح والتضعيف ، فإن أقصى ما كان يصف به الرجل المتروك أو الساقط أن يقول : « فيه نظر » ، أو « سكتوا عنه » ، ولا يكاد يقول فلان كذاب !

وكان إلى تواضعه أبى النفس حريصا على كرامة العلم : ذكروا أنه لما رجع إلى « بخارى » ، نصبت له القباب على فرسخ من البلد ، واستقبله عامة أهلها ، ونثرت عليه الدراهم والدنانير ، وبقى مدة يحدثهم ، فأرسل إليه أمير البلد

نائب الخلافة العباسية يتلطف معه ويسأله أن يحضر منزله فيقرأ الجامع الصحيح والتاريخ الكبير على أولاده، فامتنع البخارى من ذلك وقال لرسوله: قل له أنا لا أذل العلم، ولا أحمله إلى أبواب السلاطين، فإن كانت له حاجة إلى شيء منه فليحضر إلى مسجدى أو دارى.

وقد روى صحيح البخارى من مؤلفه خلق كثير، يقدره بعضهم بتسعين ألف رجل، واعتنى كثير من الأئمة بشرح الكتاب أو اختصاره أو التعليق عليه، وأخذ علماء مصر بحظهم من العناية بهذا الكتاب - خلال العصور - ومن أشهرهم العينى، والسيوطى والقسطلانى. وقد ترجم للبخارى من علماء مصر فى العصر الحديث أحمد أمين ونقد منهجه نقدا منصفا فى كتابه «ضحى الإسلام».

وبعد فأولئك هم أعلام الإسلام وأركان نهضته العلمية، سبقوا الدنيا بحثا وتحقيقا، وضربوا لها الأمثال فى الجهاد من أجل العلم، وفى المحافظة على كرامة العلماء، وخلفوا لمن بعدهم من المسلمين ذخائر من العلم الصحيح جديرة بأن تشد فى طلبها الرحال، وأن ينهل منها كل مسلم ومسلمة.

بين هارون الرشيد وجعفر البرمكى

استدعى هارون الرشيد جعفر البرمكى لتأدية شهادة بين يديه، وكان قد استشهد به أحد طرفى الخصومة فى قضية ... فلما مثل بين يدى الخليفة، سأله أأنت شاهد فى هذه الخصومة ياجعفر؟ فقال نعم!!

يامولاى، فرد عليه الخليفة — هارون — وقال له: إما أنك تقولها بعقيدة أو غير ذلك، فإن كان الأول فأنت خاطئ العقيدة؛ فالمولى الله وحده وإن كان الثانى فأنت كاذب، وفى كلتا الحالتين فأنت لست أهلا للشهادة..